التعليم الحواريّ أداةً لتطوير المجتمع
تجربة جمعيّة كاريتاس - مصر

صلاح سبع*

مقدّمة

في الحديث عن التقدّم، لا بدّ من التركيز على كيفيّة استخدام التعليم من أجل التطوير وممارسة الحقوق.

والحقّ في التعليم أمرٌ معروف ومعترف به في مصر منذ رفع رايته طه حسين. لكنّ التعليم في الوقت نفسه قد يكون فاقدًا محتواه الحقيقيّ ومجرّد شهادة أو ورقة في يد مَن تعلّموا، إن لم يدفع الإنسان إلى تغيير مجتمعه.

وانطلاقًا من هذا المفهوم، تبنّي كاريتاس جهودها في مجال مكافحة الأمّيّة من خلال برنامج «تعلّم تتحرّر» الذي يقوم على فكرة التوعية، وهي فكرة تتجاوز مفاهيم التعليم التقليديّ القائم على تلقين كمّيّة من المعلومات، وتتعامل مع الدارس على أنّه إنسان جاهل يحشو رأسه بعلوم قد يحتاج إليها أو لا يحتاج، وتركّز على اللحاق بالتعليم النظاميّ من دون النظر في جدوى هذا التعليم في حياة الأمّيّ نفسه.

(*) من مؤسّسي اللجنة المركزيّة لمحو الأمّيّة في العام ١٩٧٥. مسؤول عن قطاع محو الأمّيّة في جمعيّة كاريتاس - مصر.

وقد ظهر في الستينات من هذا القرن مُرَبٍّ برازيليّ شهير هو «باولو فريري» الذي استطاع، عبر احتكاكه بالبشر في أوساط شديدة الفقر، اكتشاف تعارض حاجات الدارسين الملحّة ما يتعلّمونه في كثير من الأحيان. لهذا انطلق، في نظرته إلى تعليم الأمّيين، من درس حاجتهم ورغبتهم في التعلّم، وألّف عدّة جمعيّات ثقافيّة تساعد هؤلاء الأمّيين على التعلّم من خلال التعبير عن مشكلاتهم والتدرّب على حلّها. فبدأ تعليم الكبار يتّخذ معنًى جديدًا يتجاوز فكرة الحصول على شهادة، ويستهدف تغيير المجتمع وتطويره، ويعتمد على أسلوب الحوار.

وقد تعرّفنا إلى هذا الفكر العامّ ١٩٧٢ من خلال بعض الأصدقاء في لبنان الذين كانوا قد سبقونا في محاولة تطبيع هذا الفكر للواقع العربيّ واللبنانيّ منذ العام ١٩٦٨.

وبذلك بدأت تجربة اللجنة المسكونيّة لمكافحة الأمّيّة بصفتها محاولة لتطبيق هذا الفكر في مصر.

وكان أهمّ ما لفت نظرنا آنذاك أنّه أسلوب يجذب الدّارسين، وأنّ الحوار ما هو إلّا وسيلة لتنشيط الدرس وإحيائه، وأنّ الطريقة الصوتيّة هي مجرّد أسلوب لتعليم الكلمات بشكل سريع. وسرعان ما اكتشفنا أنّ ما نادى به «باولو فريري» هو أعمق بكثير من ذلك، وأنّه في الحقيقة يطرح ثورة تربويّة أكثر من كونه مجرّد أسلوب تعليميّ متطوّر.

فالاستماع إلى الدارسين والتعرّف إلى مشاكلهم والانطلاق منها للدرس أمر غير معهود، كما أنّ الاعتراف الحقيقيّ بخبرتهم أمر يصعب علينا نحن الذين تعلّمنا، ونعتقد – لا إراديًّا، بل بسبب الأسلوب التربويّ الذي نشأنا عليه – أنّنا نعرف كلّ شيء.

وقد تبيّن لنا أيضًا أنّ الدارسين – مهما كانت ظروفهم شاقّة – لديهم قدرات كامنة يجب استثمارها، وأنّ هذا الاستثمار كفيل بتغيير الكثير من الأوضاع السلبيّة في مجتمعهم، من عادات وتقاليد وعلاقات، ويؤدّي إلى حركة وعي لا يمكن الدارس بعدها أن يظلّ سلبيًّا في حياته. إنّ «باولو

فريري»، بأسلوبه التربوي، يخلق شخصيّة جديدة فاعلة، لا مجرّد دارس حصل على شهادة.

ونحن، عندما بدأنا، كنّا نتصوّر أنّنا بصدد إعداد برامج للريف وغيرها للمدينة وأخرى للمرأة وأخرى للشبيبة... إلخ، وسرعان ما تبيّن لنا أنّ هذا يناقض الفكرة الأساسيّة.

إنّ عمل برامج منفصلة لكلّ فئة يعني تلقين المعلّم وتوقع الدارس في عالمه، بدلًا من توفير الفرصة للمعلّم أن يبتكر، وللدارس أن يوسّع مداركه.

لذا عدنا إلى فكرة تأليف كتاب واحد يستمدّ عناصره من الحياة العامّة اليوميّة، ونترك المساحة الكافية والمرونة للمنسّق لأن يكيّف هذه العناصر تبعًا لخصائص الدارسين الذين يتعامل معهم.

وفي سبيل ذلك، تمّت دراسة بالتعاون مع العاملين في مجال التنمية ومحو الأميّة والعمل الاجتماعيّ، واستهدفت تحديد حاجات الأمّيّين على اختلاف فئاتهم، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وأبناءَ مُدُن وأبناءَ أرياف إلخ. فأظهرت تشابه حاجاتهم الجوهريّة، نتيجةً تشابه ظروفهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهي الحاجات التي بُني عليها برنامج واحد، رغم كلّ ما يمثّله ذلك من خطورة في خلق البشر أو في تشكيلهم وفق نمط واحد، أو حتى التعامل معهم على هذا الأساس. وهذا ما أمكن تجاوزه عبر المرونة التي يتمتّع بها فكر «باولو فريري» وهو يظهر بوضوح في كتابه تعليم المقهورين، حيث يرى أنّ التعليم يجب أن يتمحور على اختبارات الدارسين، ومشاكلهم، ليكون أكثر ارتباطًا بواقعهم. وبالتالي يصبح دور الكتاب هنا مراجعة بعض الكلمات، فيصبح الإرتباط شديدًا بين ما يتعلّمه الدارس، وما يواجهه من مشكلات، وما يطرحه من حلول مبنيّة على خبرته الفعليّة لمواجهتها، وهو ما يُنمّي عنده الشعور بالذات، والرغبة الحقيقيّة في التغيير، لأنّ الحلول التي يتوصّل إليها لمواجهة مشاكله ليست مفروضة عليه.

كانت الدروس الأوائل تدور على مشاكل الناس في علاقاتهم، على الأوضاع الاقتصاديّة وعلى الفكر والثقافة السائدة. وأخذنا في ذلك بمبدأ التدرّج من العامّ إلى الخاصّ حتّى يستطيع الدارس أن يعبّر بسهولة وبالتدريج عن نفسه، فلا يمكن أن نتصوّر أنّ الدارس سيتحدّث عن مشاكله الاقتصاديّة الخاصّة كالأجور، أو علاقة الزوجة بزوجها في الأمور المالية، من أوّل مرّة.

برنامج «تعلّم تتحرّر»

وقد أطلقت اللجنة اسم «تعلّم تتحرّر» على هذا البرنامج، وهو عنوان يعبّر بصدق ودقّة عن فلسفة «باولو فريري» التي تنادي بتوعية الإنسان المقهور من أجل تحرّره، وتؤكّد أنّ التعليم من أجل الحرّيّة والتحرّر يكون بعودة الإنسانيّة إلى الإنسان، فيصبح قادرًا على الإبداع والبناء والحركة، وعلى أن يكون نشطًا مسؤولًا وفعّالًا، وإنسانًا تحرّر من الخوف الذي يتملّكه في ممارسة دوره في واقعه اليوميّ. ذلك الخوف الذي أطلق عليه «باولو فريري» اسم «ثقافة الصمت» لأنّه يعيق مبادرات الإنسان وخطواته ونموّه وسعيه إلى مراميه، ويعيق تحرّره من التخلّف والجهل والعادات السلبيّة والقدرات وعالم الغيبيّات الذي يتحكّم في مصيره بلا وعي..

فالتعليم هنا هو التعليم الحواريّ الذي يعمل على البصيرة وعلى رؤية الواقع بصدق، وبالتالي إمكانيّة الفعل المؤثّر في هذا الواقع والعمل المناسب لتحقيق التغيير والتطوير.

ومن ثمّ تكون العلاقة الحواريّة التي تنشأ بين الدارسين والمنسّقين (المعلّمين)، وما بها من تبادل الخبرات والمعلومات حول قضايا الواقع المشترك، هي الفعل الخلّاق لفهم الواقع ونقده واختيار المتغيّرات أو المواقف أو الحلول المناسبة.

إنّ وعي الوضعيّة الإنسانيّة هو في حقيقته وعي الوجود الإنسانيّ كلّه. ذلك بأنّ الإنسان، عند نقده وضعه، يبدأ باكتشاف الآخرين الذين في

مثل وضعه. وهذا التداخل الإيجابي في الواقع المشترك الذي يعيشونه معًا، هو في حقيقته وعي تاريخيّ يمثّل خطوةً إلى التغيير والتحرّر المطلوب.

وسوف نلاحظ في هذا الإطار تبادل عمليّة التعلّم بين الدارس والمعلّم، بحيث تتغيّر نظرة المعلّم إلى كثير من الأمور نتيجةً علاقته بالدارسين، تلك العلاقة التي تتحوّل من مجرّد الشعور بالإشفاق عليهم إلى التضامن معهم، لدعم جهودهم ولتطوير حياتهم بعد التعرّف إلى خبراتهم وقدراتهم الحقيقيّة، لا سيّما وأنّ بعض مشكلاتهم قد تكون هي نفسها مشكلات المعلّم التي عليه هو أيضًا مواجهتها. هكذا تصبح عمليّة التعليم في الحقيقة عمليّة اكتشاف خبرات الأمّيّين الكامنة وثقافتهم ورؤيتهم مجتمعهم، وهم لا يستطيعون التعبير عنها أو إظهارها، وهذا ما يعني، في حالة نجاحنا، قدرتنا على تحويل التعليم من مُجرّد حقّ إلى قدرة على ممارسة الحقوق.

أوّلًا: التعليم الحواريّ

ولكي يمكن تحقيق ذلك في برنامج تعليميّ لمحو الأمّيّة، لابدّ من وجود شقّين: يمثّل الحوار الشقّ الأوّل، ويقودنا إلى ثلاثة أدوار رئيسيّة هي: التعبير والتحليل والتخطيط، وتتمّ جميعها من خلال منهج متكامل.

١ - أن يمتلك القدرة على التعبير عن مشكلة، حتّى لا تظلّ هذه المشكلات غائبة عن اهتمام المجتمع

لذلك يحتوي كلّ درس في البرنامج التعليميّ على جزء حواريّ يخصّص للحديث عن مشاكل الدارسين والتحاور في شأنها، لأنّها أفضل الوسائل في التعبير عن أنفسهم ومشاكلهم وتصوّراتهم لمواجهتها.. وقد يخجل الدارس أو يتعجّب من أسلوب الحوار في البداية، لا سيّما وأنّ تربيته تمّت على مبادئ التلقين والإنصات، فيفقد القدرة على الحوار والتعبير، وهي القدرة التي يستعيدها من خلال عمليّة التعلّم.

٢ - أن يكتسب الدارس القدرة على التحليل، وهي ليست سهلة. فقد يستطيع الدارس التعبير عن مشكلاته، من دون أن يربط هذا بالتحليل والنقد سعيًا إلى البحث عن الأسباب والجذور التي تعود إليها تلك المشكلات. وسنجد أنّ اكتساب القدرة على التحليل الصحيح مرهون بمستوى الوعي الذي يكتسبه الدارس.

- في حالة الوعي السحريّ، يُرجع الدارس مشاكله إلى أسباب غيبيّة، وهو ما يتبعه طرحه حلولًا سحريّة لمواجهة هذه المشاكل.
- وفي حالة الوعي الساذج، يربط الدارس المشكلة بآخر سبب استطاع ملاحظته، وليست جميع الأسباب قد تؤدّي معًا إلى ظهور المشكلة. لهذا تأتي الحلول التي يطرحها في إطار هذا الوعي وقتيّة وغير جذريّة.
- وفي حالة الوعي النقديّ، يتتبّع الدارس جميع الأسباب المؤدّية إلى مشاكله، وبالتالي يمتلك القدرة على وضع حلّ يأخذ جميع هذه الأسباب بعين الاعتبار، وهو مستوى من الوعي لا يستطيع الدارس أن يصل إليه إلّا إذا امتلك القدرة على التحليل النقديّ.
- وفي حالة الوعي المتعصّب، قد يتعصّب الدارس لأحد الأسباب المؤدّية إلى مشكلته، وبالتالي يتعصّب لأحد الحلول التي قد يراها الأنسب ويفرضها على الآخرين، من دون أخذ رأيهم ومبادرتهم بعين الاعتبار، ممّا يحبط هذه المبادرات.

٣ - أن يكتسب الدارس القدرة على التخطيط

وذلك ليمارس ما توصّل إليه من حلول. إذ إنّ تحليل أسباب المشاكل يجب أن يرتبط أيضًا بالمشاركة والتخطيط الجماعيّ في أساليب مواجهتها، وهذا ما يضع في الحسبان جميع الأسباب والمعطيات المرتبطة بالمشكلة. إنّ التخطيط الجماعيّ لمواجهة هذه المشاكل يمكن ترسيخه عبر سلسلة من التدريبات التي تبدأ برصد المشكلات الصغيرة وأسبابها والتعرّف إليها، ثمّ تتناول التخطيط الجماعيّ لحلّها، كجزء من

البرنامج التعليميّ، علمًا بأنّ هذه التدريبات تمنح الدارس، في حالة نجاحها، الثقة بنفسه، وهي خبرته لمواجهة المشاكل الكبرى على مستوى المجتمع المحلّيّ، وبالأسلوب التحليليّ الذي تدرّب عليه. وهنا يصبح التعليم أداةً في ممارسة الحقّ والدفاع عنه، ورصيدًا تستطيع الشعوب أن تتقدّم بفضله، وهو ليس مجرّد شهادة على جدارة أو أرقام تتراجع في الإحصائيّات الرسميّة.

ثانيًا: الشقّ التعليميّ

أمّا الشقّ الثاني فهو الشقّ التعليميّ، وفيه يتدرّب الدارس أيضًا على تحليل الكلمة موضوع الدرس، وهذا ما دعا إلى استخدام الطريقة الصوتيّة، بحيث يسهل على الدارس، من خلال مجرّد نطقة من نقاط الكلمة، أن يحلّلها إلى أصواتها، وبالتالي يمكن إعادة توظيف تلك الأصوات في تكوين كلمات جديدة، يكتشف من خلالها الدارس علاقة الصوت بالشكل الذي يرمز إليه، وهو ما نسمّيه الحرف.

وقد تبدو تلك الطريقة التي استُخدمت في بلدان كثيرة لتعليم اللغة غير مألوفة. إلّا أنّها فعّالة إلى أقصى درجة، لا سيّما وأنّ الحروف التي يتمّ تعلّمها قد رُتّبت ترتيبًا عمليًّا جعل الأكثر استخدامًا يأتي في الدروس الأوائل، والأقلّ استخدامًا يأتي في النهاية.

ومن أجل بلورة الناحية التعليميّة، كان الأمر في غاية الصعوبة. فاللغة البرتغاليّة التي كان «پاولو فريري» يعلّمها هي لغة ذات مقاطع صوتيّة واضحة بحكم وجود الحروف الساكنة والمتحرّكة، ولكنّنا في اللغة العربيّة – كما نعلم – هناك الحروف وهناك الحركات.

وقد ظلّ الحوار بيننا طويلًا إلى أن استقرّ بنا الرأي على أنّ الحلّ الأنسب لهذه المشكلة هو أن نبدأ بالحركات الطويلة في بداية البرنامج، المدّ بالألف، والمدّ بالواو، ممّا يجعل ربط الصوت بالشكل واضحًا، وأرجأنا الحركات القصيرة، الفتحة والكسرة والضمّة بعض الشيء، إلى

مرحلة متقدّمة من البرنامج، واعتمدنا بعد ذلك فكرة تعليم الحرف بصوته «نّه»، لا باسمه «نون»... إلخ.

ولكن، في كثير من الأحيان، تعاني من قِبَل الدارسين الذين ذهبوا بعض السنوات إلى المدرسة ويصرّون على اسم الحرف، رغم أنّ تعليم صوت الحرف يساعد على التعلّم بسرعة.

ولقد تطلّب منّا إعداد البرنامج إعادة ترتيب الحروف الأبجديّة، وهذا ما يساعد على تحقيق الهدف من خلال التراكم المعرفيّ. ففي الأبجديّة حروف كثيرة تأتي في نهاية القائمة، في حين هي شائعة الاستخدام، كما أنّ هناك حروفًا كثيرة في بداية الأبجديّة لا نستخدمها كثيرًا، كالثاء، أو الخاء، أو الذال... إلخ.

وقد استوحينا لهذا الترتيب فكرة الآلة الكاتبة التي تمّ ترتيب حروفها بحسب كثرة الاستخدام، وتقريب تلك الحروف من الأصابع القويّة، ممّا يساعد على سرعة الكتابة، وبذلك أصبح الدارس، بعدد قليل من الحروف وفق الترتيب الجديد، يستطيع قراءة عدد كبير من الكلمات، وبالتالي الجمل.

وقد تنبّينا أيضًا إلى أنّ هذه الطريقة تساعد الدارس على تحليل الكلمة إلى مقاطع وحروف. ثمّ إعادة بناء كلمات جديدة وتركيبها، مثلما تعلّم تحليل الواقع ومشكلاته في محاولة تغييره للأفضل. والبرنامج، لأنّه مرتبط بالحياة، يتمّ مراجعته كلّ عدّة سنوات ليواكب المستجدّات، ويلبّي الحاجات الجديدة التي ظهرت من خلال أداء الدروس. لذلك تمّ تصميم دليل المنسّق (المعلّم)، بحيث يمكنه كتابة انطباعاته وانطباعات الدارسين وأصداء الدروس عليهم، والاستعانة بذلك عند إعادة الأصداء.

دور جمعيّة كاريتاس - مصر في نشر البرنامج

لقد تبنّت جمعيّة كاريتاس - مصر هذا البرنامج، وهي شريك مؤسّس في اللجنة المسكونيّة منذ نشأتها في العام ١٩٧٢. وكرّست كاريتاس لمحو الأميّة قطاعًا خاصًّا، ومنذ العام ١٩٨٤، باشرت ما يُسمّى

«المشروع القوميّ» الذي يهدف إلى فتح باب المشاركة مع الجهات المحلّيّة، من حكوميّة وأهليّة، لدفع العمل في مجال مكافحة الأمّيّة. دعمت، في سبيل ذلك، مكتب الإسكندريّة، وأنشأت مكاتب خاصّة في بعض المحافظات الأُخَر لتنفيذ المشروع. فبدأت بالمنيا وسوهاج فأسيوط. وأخيرًا تمّ فتح مكتب في مدينة الأقصر لخدمة محافظتي قنا وأسوان.

وتسعى المكاتب إلى انتاج فصول لمكافحة الأمّيّة بالتعاون مع الجهات المعنيّة، ومساندة تلك الفصول عن طريق تدريب المنشّطين ومتابعتهم فنيًّا، كما تتمّ بالتدريج إضافة بعض النشاطات التنمويّة والتقنيّة الأخرى إلى برنامج مكافحة الأمّيّة، تبعًا لحاجات كلّ منطقة. وهي بذلك تقوم بتقديم نوع من التنمية المتكاملة، تبعًا لنموّ درجة وعي الناس وقدرتهم على المساهمة الحقيقيّة في تلك البرامج التي تتبلور تباعًا مع الأهالي أنفسهم.

وهكذا أصبحت تتدّم إلى الدارسين خدمات جديدة، كالتوعية الصحّيّة والتدريب المهنيّ، لمَن يشاء وفي المجال الذي يحتاج إليه، كما أنّها تتدّم بعض القروض لتزيد الدخل عن طريق عمل مشروعات صغيرة.

وتسهم هذه البرامج التي تستمدّ روحها جميعًا من فلسفة التعليم الحواريّ، في خلق مجموعات صغيرة واعية تسعى لتطوير مجتمعاتها. فالبرامج تؤهّلهم لذلك وتحفزهم على أن يبادروا إلى تحقيق التغيير من تلقاء أنفسهم، وبمساندة الجمعيّات المحلّيّة الأُخر.

ومع توسيع قاعدة عمل كاريتاس في مجال مكافحة الأمّيّة، تبلور دورها خاصّة، مع بداية الحملة القوميّة لمحو الأمّيّة ١٩٩٠-١٩٩٩، في أن تقوم أيضًا كجهة مدرّبة بتأهيل العاملين في مشروعات مكافحة الأمّيّة في عدّة هيئات كاليونيسف وهيئة كير الدوليّة والهلال الأحمر... إلخ. وقد بلغت فصول كاريتاس في العام ١٩٩٧-١٩٩٨ (٩٥٠ فصلًا) موزّعة على أنحاء الجمهوريّة المصريّة، وتضمّ أكثر من خمسة عشر ألف دارس ودارسة.

يصدر قريبًا عن دار المشرق

- السرّ المصون في شيعة الفرمسون
  بقلم المرحوم الأب لويس شيخو اليسوعيّ
- الديارات النصرانيّة في الإسلام
  بقلم المرحوم حبيب الزيّات
- تاريخ الفلسفة الإسلاميّة
  بقلم الدكتور ماجد فخري
- نصوص قرآنيّة مختارة لها صلة بالكتاب المقدّس
  بقلم الأب جاك جوميه – تعريب الأب صبحي حموي اليسوعيّ
- كتاب المجموع في المحيط بالتكليف
  لقاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبّار
  تحقيق الأب يان يترس اليسوعيّ
- الإيمان الكاثوليكيّ (وثائق كنسيّة رسميّة)
  إعداد الأب جرفيه دوماج – تعريب الأب صبحي حموي اليسوعيّ
- إزائيّة الأناجيل الأربعة
  إعداد الأب صبحي حموي اليسوعيّ
- الدين وحقوق الإنسان. رؤية مسيحيّة
  بقلم الأب وليم سيدهم اليسوعيّ
- الرياضات الروحيّة الإغناطيّة. قراءة لاهوتيّة روحيّة معاصرة
  بقلم الأب فاضل سيداروس اليسوعيّ
- دَعِ الله يكمّل شخصيّتك
  بقلم دان مونتغمري – تعريب الأب صلاح أبو جوده اليسوعيّ
- *Explication de la Sainte Messe*
  Par S[t] Nersès de Lambron – Ed. Isaac Kéchichian, S.J.
- *Najrān. Chrétiens d'Arabie avant l'Islam*
  par René Tardy, S.J.